دورُ العقلِ في تشخيصِ الفتنِ النَّوعيةِ وسُبلُ معالجتها في ضوءِ القرآن الكريم

◆ د. فاضل مدّب المسعودي[1]

■ **خلاصة**

العقـلُ هو الحصنُ الأوَّلُ للمُؤمنِ وغيرِ المؤمنِ، لكنَّه يتجسَّـدُ بـكلِّ مزاياهُ الحميدةِ عندَ الإنسـان المؤمنِ بربِّه؛ حيثُ يَسـتطيعُ مـن خلاله التَّمييزَ بـينَ الحقِّ والباطـلِ، وما يَندرجُ تحتَهما من الخير والشرِّ، واختيارِ المواقفِ الصَّحيحةِ، بما أولاهُ اللهُ -سـبحانه- من مواهبَ وإمكانيّـات تُؤهِّلُه لذلـك. وهذا الأمرُ يتوقَّفُ عـلى تغذيةِ الفكر من قِبَلِ الإنسـان بالأمور الحَميـدةِ، فكلَّما كان البنـاءُ صَحيحًا وله مبـادئُ خُلُقيّة حَميـدةٌ، كانَت النَّتائـجُ مُتوهِّجةً صحيحةً وناصعةً كالثَّلج.

في هذه الدِّراسةِ، حاوَلْنا إثباتَ أهميّةِ العَقلِ، ودَوره المِحوريِّ في تشخيصِ الفِتن النَّوعيّة، واتِّخـاذِ القراراتِ الصّائبةِ التـي تُجنِّبُه الوقوعَ فيها ومُعالجتها، الأمرُ الذي يُسـهم في توجيهِ الإنسانِ إلى الصَّوابِ، ويَضمن له الفوزَ والنَّجاةَ في الدّارَينِ.

الكلمات المفتاحية: العقل، الفتن - الشُّعور واللا شعور - المستقلات العقلية - الفتنة الدِّينية - الفتنة الدُّنيوية - المعالجات.

1 - أستاذ الدراسات العليا في كلية الفقه، تخصص علوم القرآن والتفسير، جامعة الكوفة - العراق.

مقدِّمة

لم يكنْ خلقُ الإنسانِ على هذه البسيطة عبثًا، ولم تكنِ الغايةُ من خَلقه عبادةَ الواحدِ الأحدِ فحسب، كما هو ظاهرُ قولِه -تعالى-: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وإنَّما كانت الغايةُ من خلقِ هذا الكائنِ، الذي زيَّنَه اللهُ -تعالى- بنعمة العَقلِ، وجَعلَه -العقلَ- مناطَ التَّكليفِ، أن يَرتقي به نحو الكمالِ، فهو الغايةُ الكُبرى؛ إذ تتزيَّنُ ذاتُ هذا المخلوقِ بمكارمِ الأخلاقِ، والإيمانِ باللّٰه الواحدِ الأحدِ، من خلال استثمارِه للعقلِ الواعي، وانتباهِه إلى خوارقِ العقلِ اللا واعي. وعكسُ ذلك صحيحٌ.

وحيثُ أنَّ اللهَ -تعالى- تعبَّدنا بالعقلِ، فلا يمُكن تحقيقُ تلك الغايةِ، أو معاقبةُ المُنكِرينَ والواقفينَ أمامَها، إلاّ بعدَ إيصالِ الإنذارِ، وتَبليغِ التَّبشيرِ للنّاسِ، فمِن القُبح العقليِّ أن يكونَ هناك عقابٌ بلا بيانٍ واصلٍ. وقد تمثَّلَ هذ البيانُ بمشاريعِ الدَّعوةِ الإلهيّة؛ إذ بلغَت ما يقربُ من مئة وأربعة وعشرينَ ألفَ مشروعٍ، على عددِ مَن أُرسلَ من الأنبياءِ والرُّسلِ إلى أُممِهم، فكان كُلُّ نبيٍّ منهم يمُثِّلُ مَشروعًا إلهيًّا، يَحمل بيانَ الإنذارِ والتَّبشيرِ للنَّاسِ، في محاولةٍ لصناعة أُمّة خيرَّةٍ مُطيعة لله تعالى، ومُطبِّقة لما جاءَ به رُسلُهُ سبحانَه؛ لغرضِ الارتقاءِ في قوسِ الصُّعودِ نحوَ السَّماءِ؛ حيثُ العالَمُ العلويُّ الكاملُ.

لكنَّ المُطَّلعَ على المشاريعِ النبويّةِ، يَجدُها لم تُحقِّق المُرادَ لها، ولم تَنجحْ بالمستوى المَنشودِ الذي يَنشدُه المُقنِّنُ الإسلاميُّ، بل وقفَت الأُممُ الجاهلةُ بحقيقة ربِّ الكونِ وخالقِه، إزاءَ هذه المشاريعِ الإلهيّةِ، مُنكرةً ومُكذِّبةً بما جاءَ به أصحابُ تلك المَشاريعِ التي تَروم استنقاذَ الأُمّةِ، وتَطهيرَها من الرَّذائلِ، وتَزكيةَ النَّفسِ بالفَضائلِ.

وما حالةُ التّردِّي الفكريِّ والحضاريِّ، للمجتمعاتِ على مرِّ العصورِ، وما نَعيشُه اليومَ من الصِّراعاتِ والنِّزاعاتِ بينَ الأُممِ، إلّا بسببِ عدمِ الوعي والتَّنبيهِ على الفِتنة، حتى توالَت الفتنُ على العالَمِ الإسلاميِّ على وجهٍ خاصٍّ، لعدمِ القدرةِ على التَّحليلِ والتَّفكيرِ بمَنطقِ العَقلِ؛ لأنَّ واقعَ العالَمِ اليومَ يَعيشُ حالةً من الاستغراقِ في المناهجِ الماديّةِ، التي تُفقدُ الإنسانَ القدرةَ على النَّظرِ للأمورِ بعَينٍ إلهيّة، وبعقلٍ مُتنوِّرٍ بنورِ اللهِ، وهذا ما جعلَهم يَسقطونَ في الفتنِ لفَقدِهم القدرةَ على تعقُّلِ الأمورِ تَعقُّلاً حقيقيًّا، نابعًا من المنطقِ الإلهيِّ؛ حيثُ جاءَ في قوله -تعالى-: ﴿**وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾ [الملك:١٠]، أي: لو كنّا نتعقَّلُ ونُميِّزُ بنظرةٍ إلهيّةٍ نورانيّةٍ لَما اخترنا طريقَ جهنَّمَ، كما قال -تعالى-: ﴿**أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا**﴾ [الأنعام :١٢٢]؛ لأنَّ العقلَ من أهمِّ القُوى الإدراكيّةِ التي فضَّلَ اللهُ -تعالى- بها الإنسانَ على سائرِ خلقهِ في هذهِ النَّشأةِ الماديّةِ.

وقوةُ العقلِ هي: القوةُ التّي بها يكون الإنسانُ إنسانًا، وقد جعلَها اللهُ مدارَ التَّكليفِ والاختبار، وبزَوالِها يَخرج الإنسانُ من دائرة التَّكليفِ، ويُرفَعُ عنه القلمُ كما وردَ في الخبرِ: «رُفِعَ القلمُ عن المجنونِ حتّى يَفيقَ»[١]. وهذه القوّةُ الإدراكيّةُ كانَت مَحلاً للبَحثِ والتَّحليل، وقد بحثَها العلماءُ سعيًا للتَّعرُّفِ إلى ماهيّتِها، وتَحديدِ خواصِّها التي تتميَّزُ بها عن سائرِ القُوى الإدراكيّةِ، وممّا لا شكَّ فيه أنَّ الكشفَ الذّاتيَّ الذي يَملِكُهُ العقلُ نابعٌ من أنَّ كُلَّ شيءٍ ظاهرٌ له – العقلِ- بسببِه.

وما سنُبيِّنُه في هذه الدِّراسةِ هو وَضْعُ الحلولِ المناسبةِ لمُعالجةِ الفِتَنِ في ضوءِ القرآنِ الكريم، ليكونَ سببًا وطَريقًا للنَّجاةِ، وهذه الطُّرقُ شاقّةٌ تَحتاجُ إلى ثَباتٍ وصَبرٍ، فإذا لم يكنِ الثَّباتُ مُستمَدًّا من الله سبحانه وتعالى، فلا يَثبتُ أحدٌ على الإطلاقِ، فمَنْ لم يُثبِّتْهُ اللهُ فهو هالكٌ، كما قال -تعالى-: ﴿**يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ**﴾ [إبراهيم: ٢٧]، أي: يُثبِّتُهم اللهُ بالإيمان، عندما تُعرَضُ عليهِمُ

١ - عن الأعمش، عن ابن ظبيان قال: أُتي عمر بامرأة مجنونة قد فجرَت، فأمر برجمها، فمرُّوا بها على علي بن أبي طالب (عليه السلام)، فقال: ما هذه؟ قالوا: مجنونة فجرَت، فأمر بها عمرُ أن تُرجَمَ؛ قال: لا تَعجلوا، فأتى عمرَ فقال له: أما علمتَ أنَّ القلمَ رُفع عن ثلاث: عن الصبيِّ حتى يَحتلم، وعن المجنونِ حتى يُفيق، وعن النّائمِ حتى يَستيقظ؟ انظر: محمد بن علي (الشيخ الصدوق)، الخصال، ج١١ ص ٤٦ -١٤.

الفتنُ والشُّبهاتُ والشَّهواتُ[1]، كما جاء في قوله -تعالى-: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧]، هنا يتضرّعون إلى ربِّهم، أي: يُثبِّتُهم في المواطنِ الصَّعبةِ، والإسرافُ هو تجاوُزُ الحدِّ، وعَلموا أنَّ الذُّنوبَ والإسرافَ من أسبابِ الخذلانِ، فطلبوا من اللهِ سبحانَه العَونَ والصَّبرَ والثَّباتَ والمَغفرةَ[2].

وعليه فقد اختطَّتْ هذه الدِّراسةُ لنفسِها أن تكونَ من ثلاثةِ مَطالبَ، تَسبقُها المُقدِّمةُ، وتَختمُها النَّتائجُ: فكانَ المطلبُ الأوَّلُ قد أبانَ مَفهومَ العقلِ ودَورَه في تَبيينِ الأحكامِ، فيما اهتمَّ المطلبُ الثّاني ببَيانِ المَباني العَقليّةِ التي يَستندُ إليها العقلُ في أحكامِه، وجاء المطلبُ الثّالثُ بالتَّطبيقاتِ التي تُسْهِمُ في الكشفِ عن الفِتَنِ النَّوعيّةِ بتَحكيمِ العقلِ، ثمَّ قائمةُ المصادرِ التي اعتمدَها الباحثُ.

أوّلا: مفهومُ العَقلِ ودورُه في تشخيصِ الفِتنة

نُحاولُ في هذا المَطلبِ التعرُّضَ للتَّعريفِ اللُّغويِّ والاصطلاحيِّ لهذِه القوّةِ، ومعرفةَ خواصِّها من خلالِ المُقدِّماتِ الآتيةِ:

١ - مفهوم العقل في اللُّغة والاصطلاح

عُرِّفَ العقلُ لغةً بأنَّه الحِجرُ والنُّهى، وأنَّهُ ضِدُّ الحُمقِ. والجمعُ عُقول، وهو المَسْكُ تقول: عقلَ الدَّواءُ بطنَه أي: أمسَكَها. وجاءَ بمعنى المَنعِ أيضًا، تقول: عقلتُ البعيرَ، إذا شددتُ ساقَه بحبلٍ لمَنعِه من الهربِ.[3]

وأمّا في الاصطلاحِ، فقد جاءَت كلماتُ العلماءِ في تحديدِه مُتشابهةً في المَعنى، وإنْ تباينَت في

١ - محمد بن الحسن الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ج٦ ص ٢٩٣، بتصرف.
٢ - الفضل بن الحسن الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٢ ص ١٤٩.
٣ - محمد بن مكرم (ابن منظور) لسان العرب، ج١١ ص ٤٥٨.

الألفاظِ، وهو منحدرٌ عن مَعناهُ اللُّغويِّ، كالآتي:

١. تعريف (النفري) (ت٣٥٤هـ): «هو قوّةٌ للنَّفسِ بها تستعدُّ للعلومِ والإدراكاتِ»[١].

٢. تعريف (الغزالي) (ت ٥٠٥هـ): «الوصفُ الذي يُفارِقُ الإنسانُ به سائرَ البَهائمِ»[٢].

٣. تعريف (ابن الجَوزيّ) (ت٥٩٧هـ): الذي يقول فيه: «يُعرَفُ العقلُ بسُكوتِه وسُكونه ومُراقبتِه للعَواقبِ، وليس العقلُ مَحسوسًا، وإنَّما يدلُّ عليه ظاهرُ قولِ العاقلِ وعملِه».[٣]

٤. تعريف (المجلسي) (ت١١١١هـ) هو: «قوّةُ إدراكِ الخيرِ والشَّرِّ والتَّمييزُ بينَهما ومعرفةُ أسبابِ الأمورِ»[٤].

٥. التَّعريفُ المعاصِر، هو للباحثة (حميدة الأعرجيّ)، وهو «جوهرٌ مُجرَّدٌ درّاكٌ مُحيطٌ بحقائقِ الأشياءِ، على ما هي عليه في نفس الأمرِ، غير مُتعلّقٍ بجسمٍ، وله تعلُّقُ التَّدبيرِ والتَّصرُّفُ فيه»[٥].

وللشَّيخِ (الكرميّ) يَقول فيه إنَّه: «منظومةٌ من الأحكامِ العقليّةِ النَّظريّةِ والعَمليّةِ»[٦]، معَ أنَّه تعريفٌ موجزٌ لا يَنهض أن يكون جامعًا ومانعًا؛ لأنَّه إنَّما وصفَ العقلَ ولم يَحُدَّه على ما يَظهر.

ومن التَّعريفَينِ الاصطلاحيِّ واللُّغويِّ للعَقلِ يَظهر أنَّه: العَقدُ والإمساكُ، وبه سُمِّي إدراكُ الإنسانِ إدراكًا يعقدُ عليه عَقلاً، وأمّا إدراكُه عَقلاً - وهو القوّةُ التي يتصرَّفُ بها الإنسانُ- فيُميِّزُ بينَ الخيرِ والشَّرِّ، وبينَ الحقِّ والباطلِ، وهو ضدُّ الجنونِ والسَّفَهِ؛ إذ هو «وَعيُ الإنسانِ وإدراكُه لِما يَجري من

١ - عمر بن محمد النسفي، العقائد النسفية، ص٤٦.
٢ - محمد بن محمد (الغزالي)، إحياء علوم الدين، ج١ ص٧٢.
٣ - عبد الرحمن بن علي (ابن الجوزي)، الأذكياء ص ١٠.
٤ - محمد باقر المجلسي، مرآة العقول، ج١ ص ٢٧.
٥ - حميدة الأعرجي، فقه الأخلاق في الشرائع السماوية، ص ٦٦.
٦ - محمد تقي الكرمي، العقل في الفقه الشيعي، ص٢١٠.

حَولَه" [1]، هذا الإدراكُ يَنبغي أن يكونَ نابعًا عن إرادته ووَعيه، وليسَ رَغماً عنه، أو أنَّه لا يَعي من أقوالِه وتصرُّفاتِه شيئًا، بل لا بدَّ له أن يَعرِفَ أسبابَ ما يَصدرُ عنه وما يَجري حولَه.

٢- دورُ العَقل:

إنَّ نعمةَ العقلِ، بلا شكٍّ، هي مِن أعظمِ النِّعَمِ التي مَنَّ اللهُ -عزَّ وجلَّ- بها على الإنسان، يَقول (سيِّد الوَصيِّينَ) عليه السلام في ذلك: «لا غِنى كالعَقلِ ولا فقرَ كالجَهلِ»[2]. وهو الحُجّةُ الباطنةُ التي يَحتجُّ بها اللهُ -تعالى- على عبادِه، قال (الإمام الكاظمُ) عليه السلام: «يا هشامُ إنَّ لله على النّاسِ حُجّتَينِ: حجةٌ ظاهرةٌ وحجّةٌ باطنةٌ، فأمّا الظّاهرةُ الرُّسلُ والأنبياءُ والأئمّةُ، وأمَّا الباطنةُ فالعُقولُ»[3].

ولهذا فإنَّ «الكشفَ الذّاتيَّ الذي يَملكه العقلُ نابعٌ من أنَّ كلَّ شيءٍ ظاهرٌ بسببه»[4]؛ ولذلك يكونُ حجّةَ ربِّ العالمينَ على خلقِه؛ لأنَّه يَرى ما هو مُنكشِفٌ على حقيقتِه، فيه يُميِّزُ بينَ الضّارِّ والنّافعِ، ويَستطيع الإنسانُ أن يَسكن إلى نفسه ويَثِقَ بفكرِه ويَهتدي إلى سبيلِ الرَّشاد، فيكون إمامَ العلمِ ونبيَّ الحِكمةِ الباطنةِ، وهو ما أكّدَه (أميرُ المؤمنينَ) عليه السلام بقوله: «العقولُ أئمةُ الأفكارِ، والأفكارُ أئمّةُ القلوبِ، والقلوبُ أئمّةُ الحواسِّ، والحَواسُّ أئمةُ الأعضاءِ»[5].

ولقد اهتمَّ القرآنُ اهتمامًا بالغًا وواضحًا بقضيّةِ إقناعِ العَقلِ؛ لأنَّ في ذلك تَحصيلاً للقناعةِ الشَّخصيّةِ التي يَثِقُ بها الإنسانُ حتى يُغيِّرَ قناعاتِه الخاطئةَ، والتي اعتادَ عليها حقبًا طويلةً، فأصبحَت سلوكًا طبقيًّا في المجتمعِ، لا بدَّ من تَغييرِ قناعاتِ الإنسانِ على المُستويَينِ الفَرديِّ والمُجتمعيّ.

والقرآنُ الكريمُ اتّبعَ هذا المنهجَ في التَّغييرِ، للوصولِ إلى القناعةِ المُستمرّةِ الثّابتةِ، وليسَ القناعةَ المُتزعزعةَ أو المُتغيِّرةِ مع تَغيُّرِ المَوقفِ، ولا شكَّ فإنَّ القناةَ الثّابتةَ تَرتبطُ بكوامنِ النَّفسِ، أو قُلْ: بعوالمِ اللاّ شعورِ التي يتولّدُ عنها التأثيرُ في السُّلوكِ الفرديِّ أو الجَمعيّ.

١ - محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن ج٢ ص ٢٤٧.
٢ – صبحي الصالح، نهج البلاغة، ص ٤٧٨.
٣ - محمد بن يعقوب، الكليني، الكافي، ج١ ص ١٦.
٤ – محمد تقي المدرسي، الفكر السلامي، ص ٣٤.
٥ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج١ ص ٩٦.

فهناكَ حالاتٌ تمرُّ بالشُّعور (العقل) يُدركُ مَعناها ويُميِّزُ وَصفَها، سواءٌ أكانَت صالحةً أم طالحةً، يُخزِّنُها في اللا شعورِ لتُصبحَ مَلكةً باطنيّةً تُوجِّهُ الإنسانَ على وَفقها، وهو لا يَعلَمُ بها ولا يَستشعِرُها[1].

ولهذا فإنَّ العاقلَ الحَصيفَ يَجد أنَّ القرآنَ الكريمَ يُخاطبُ العُقولَ، ويَجعلُها الحاكمةَ على كثيرٍ من الظَّواهرِ كقوله -تعالى-: ﴿**كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ**﴾ [البقرة: ١٦٦]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ في ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣]، وقوله -تعالى-: ﴿**أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ما خَلَقَ اللهُ السَّماواتِ وَالأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ لَكافِرُونَ**﴾ [الروم: ٨]، وقوله -تعالى-: ﴿**قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا للهِ مَثْنى وَفُرادى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ**﴾ [سبأ: ٤٦]، وغيرها كثيرٌ من آياتِ الذِّكرِ الحكيم التي تَدعونا إلى التَّفكُّرِ فيما حَولنا لتَغييرِ سُلوكنا وقناعتنا، ثم بعدَ ذلك تَنتقلُ هذه القناعاتُ إلى اللاّ شعورِ، وهذا أمرٌ ضروريٌّ لكي يُوافِقَ السُّلوكُ الظَّاهريُّ باطنَ الإنسانِ في أفعالِه الخارجيّة.

ولهذا، فذاتُ الإنسانِ ونفسُه الباطنةُ أو(عقلُه الباطنُ) حينَ يَمتلئُ بصُورٍ رُوحيّةٍ مثلاً، فإنَّ ذلك مَدعاةٌ للحفاظِ على تلكَ القِيَمِ والثَّوابتِ والأخلاقِ الفاضلةِ، وقد وردَ في الحديث: «إنَّ النَّظرَ إلى الكعبةِ عبادةٌ، والنَّظرَ إلى الوالدينِ عِبادةٌ، والنَّظرَ في المُصحفِ من غيرِ قراءةٍ عبادةٌ، والنَّظرَ إلى وجهِ العالِمِ عبادةٌ، والنَّظرَ إلى آلِ مُحمَّدٍ عليهم السلام عبادةٌ»[2].

ونجدُ في مُقابلِ هذا كراهةَ أو حرمةَ النَّظرِ إلى المرأةِ الأجنبيّةِ أو الأفلامِ والصُّورِ الخَليعةِ؛ لأنَّ في ذلك مَلْئًا للذّاكرةِ التي تَدفع العقلَ الباطنَ للتَّشبُّهِ بتلكَ الأفعالِ أو صدورِ أفعالٍ منه على وُجهتِها.

فحينَ يقولُ الله -تعالى- في مُحكَمِ كتابِه الحَكيم: ﴿**وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى**﴾ [طه:٧]، فإنَّ «المُرادَ بالقولِ ما في الضَّميرِ من حيثُ أنَّ ظهورَه إنَّما هو بالقول غالبًا، أو كانَ أخفى

١ - يُنظر بحثنا: الشعور واللاشعور الإنساني وعلاقته بالإعجاز القرآني.

٢ – محمد بن علي (الصدوق)، من لا يحضره الفقيه، ج٢ ص ٢٠٥. محمد بن عبد الله (ابن عربي)، التجليات الإلهية، ص ٢٠.

من ذلك بأنْ كانَ خَفيًّا حتى عليكَ نفسك، فإنَّ اللهَ يَعلمُه»[1]؛ إذِ المُرادُ (بأخفى) على ما يَظهر هو ما دفعَه العقلُ الباطنُ إلى بالِكَ، وأنتَ لا تَشعرُ أينَ كانَ هذا وممَّن جاءَ؟ فالأخفى في الآيةِ إذنْ هو اللاّ شعورَ، وهو منطقةُ العِلمِ الرّاسخِ اليَقينيِّ عندَ الإنسانِ، مع أنَّ الإنسانَ لا يُدركُ تلكَ المنطقةَ وما تَحتويهِ من علمٍ يَقينيٍّ مُستقِرٍّ.

ولهذا فحينَ يَحكي القرآنُ الكريمُ عن أناسٍ يَظنُّونَ لا شُعوريًّا أنَّهم مُصلحونَ، فإنَّما يُشيرُ إلى هذه الحقيقة، قال -تعالى-: ﴿**وَإِذا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قالُوا إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ**﴾ [البقرة:١١]. ففِعلُهُم الصّادرُ عنهم، وهو الإفسادُ، جاءَ لا شعوريًّا؛ لأنَّ ذاتَهم وذاكرتَهم امتلأتْ بالإفسادِ[2].

وكذا قوله -تعالى-: ﴿**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا**﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤]، فإنَّما أصبَحوا من الفاسدينَ، لأنَّ عقلَهم الباطنَ، بما امتلأ من الأعمال البَعيدة عن صالحِ الأمورِ التي أصبحَت في باطنِه مَلكةً، تُوجِّهُ سُلوكَه نحوَ الخُسرانِ، وهو يَظنُّ أنَّه يُحسِنُ الصُّنعَ.

وتَوضيحًا لما تقدَّمَ، وبيانًا لدَور العَقلِ، يُوردُ البحثُ قولَه -تعالى-: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾ [الروم: ٣٠].

هنا إشارةٌ إلى شيءٍ لا يُدركُه الإنسانُ، وهو من صُنعِ الله تعالى، ولا دخلَ للإنسان فيها، وهي الفِطرةُ التي هي: «مجموعةٌ من الصِّفات والقابليّاتِ التي تُخلَقُ معَ المَولود، ويتَّصفُ بها الإنسانُ في أصل خلقتِه، سواءٌ القابليّاتُ البَدنيّةُ، أم النَّفسيّة، أم العَقليّة، والفِطرةُ تَهدي الإنسانَ إلى تتميمِ نَواقصِه»[3].

١ – محمد حسين الطباطبائي، تفسير الميزان، ج١٤ ص ١٢١.
٢ - الفضل بن الحسن الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج١، ص ١٠٥.
٣ – جعفر بن محمد السبحاني، مفاهيم القرآن، ج١، ص ١٥.

وهنا في الآية الكريمة تأكيدٌ على «أنَّ معرفةَ اللهِ ليسَت المَطلوبةَ وحدَها، بل الدِّينُ والاعتقادُ بشكلٍ كُلِّيٍّ، وفي جميعِ أبعادِه، هو أمرٌ فطريٌّ.. فما وردَ في الشَّرعِ لا بدَّ أن يكونَ له جذرٌ في الفِطرةِ، وأنَّ اللهَ لا يَفعل أعمالاً مُتناقضةً أبدًا»[٤]، فما يأمرُ به الشرَّعُ تَقبلُه الفِطرةُ السَّليمةُ التي أودعَها اللهُ في نفسِ الإنسانِ وهو لا يَعلم.

٣- الفرق بين الفِطرة والعَقل:

الفِطرةُ بالطَّبعِ هي غيرُ العَقلِ الواعي؛ لأنَّ الفِطرةَ ذاتُ جذورٍ باطنيّةٍ، وهي تتَّصفُ بالشُّموليّةِ والعُمومِ، ولا تَحتاجُ إلى تعلُّمٍ أو تَعليمٍ، ولا تَخضعُ للعواملِ السِّياسيةِ أو الاقتصاديّةِ ونحوها، ولا يُمكِنُ استئصالُ الفِطرةِ والقضاءُ عليها، نعمْ رُبَّما تَضعفُ عندَ بعضِ البشرِ لكنَّها لا تَنتهي بالمَرّةِ[٥]، والعقلُ ليس كذلك كما عرفتَ فيما سبقَ.

إذنْ في المنظورِ الإسلاميِّ هناكَ فِطرةٌ سليمةٌ وطبيعيّةٌ تُوافِقُ ما يأتي في الشَّرعِ ولا تُعارِضُه، وهناكَ فطرةٌ غيرُ سليمة، تَنشأ من ارتكابِ الإنسان لبعضِ الأعمالِ التي تُخالف فطرتَه السَّليمةَ، وحينَها تَبدأ النَّفسُ الأمّارةُ بالسُّوءِ بإيجادِ جدارٍ وَهميٍّ عازلٍ للفِطرةِ السَّليمة، فتُقصيها وتُعطِّلُ وَظيفتَها، وتتقدَّمُ الفِطرةُ غيرُ السَّليمةِ، وتكونُ هي الفاعلةَ والنّاظرةَ والواصفةَ والمُفوِّتةَ لأفكارِ ومشاعرِ وسُلوكيّاتِ الإنسانِ الظّاهريّةِ[٦].

وكذلك الحالُ بالنِّسبة للنَّفسِ المُطمئنّة المُلهَمة بالقُوى والإيمان؛ إذ هناكَ نفسٌ فاجرةٌ مُتغطرِسةٌ مُتمرِّدةٌ وعاصِيةٌ، تَنشأ هذه النَّفسُ بسببِ ارتكابِ المَعاصي والآثام، فتتقوّى على النَّفسِ المُطمئنّةِ وتُزيحُها من المُقدِّمة، لتَحلَّ مكانَها وتكونَ هي الحاكمةَ والشّارحةَ والمُبرِّرةَ لأفعالِ ذلك الإنسانِ، ويَنتجُ عن ذلك تجاهُلُ الفِطرةِ السَّليمةِ وتَناسي النَّفسِ المُطمئنّة، إلى الحدِّ الذي يَنسى الإنسانُ سببَ وُجوده في هذه البَسيطة، ويَتعامى عن الذُّنوب التي يَرتكبُها، قال -تعالى- ﴿**وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولِئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ**﴾

٤ – ناصر مكارم الشيرازي، التفسير الأمثل، ج٥، ص١٥٧.

٥ – جعفر بن محمد السبحاني، مفاهيم القرآن، ج١، ص٥٣.

٦ - جعفر عباس حاجي، فقه وفلسفة المناهجية التكاملية التوحيدية، ج٢ ص ٢٥٠.

[الروم:١٩]، ويكونُ هذا الإنسانُ الغافلُ مصداقًا لقولِ سيِّدِ الوَصيِّينَ (عليِّ بنِ أبي طالب) (عليه السلام): «مَن عرفَ نفسَه فقد عرفَ ربَّه»[١]، وبمَفهومِ المُخالفةِ فإنَّ الذي لا يَعرِفُ نفسَه يكونُ غافِلاً عن أوامرِ ونَواهي اللهِ سبحانه.

إذنْ هناكَ حالةٌ شعوريّةٌ طاغيةٌ وظاهرةٌ، وحالةٌ لا شعوريّةٌ مَخبوءةٌ وباطنةٌ، ويكون الصِّراعُ بينَ فِطرتَين، إحداهُما مَركوزةٌ ومَجعولةٌ من الله تعالى في الإنسان، وهي حقيقيّةٌ وسَليمةٌ، وأُخرى مَوهومةٌ ومَخبوءةٌ وسَرابيّةٌ، يُوجِدُها الإنسانُ بارتكابِه الأفعالَ المُنكرةَ للفِطرةِ الأولى.[٢]

وهذا الصِّراعُ مَوجودٌ في باطنِ كُلِّ إنسان، واللهُ -تعالى- يقول: ﴿**إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ**﴾ [الرعد: ١١]، حتى يَصِلَ الإنسانُ إلى الكمالِ الذي يُريدُه المُقنّنُ الإسلاميُّ والشّارعُ المُقدِّسُ للعَقل.

وهذا الكمالُ المتُمثِّلُ بمَعرفةٍ حقيقيةٍ ودقيقةٍ لرُوحِ الدِّينِ، وللمَعارفِ الإلهيّةِ السّاميةِ في عالَمِ الرُّوحِ، وعالَمِ المَلكوتِ، لا يتحقَّقُ البتّةَ إلا لأصحابِ الولايةِ، ولِمَن اجتباهُم اللهُ، واختارَهُم على عِلمٍ على العالَمينَ، وهم المَعصومونَ الذينَ ذكرَهُم اللهُ -تعالى- في قوله: ﴿**إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾ [الأحزاب:٣٣]، وفي الدَّرجةِ الثّانيةِ يأتي الصّالحونَ في كلِّ زمانٍ ومَرحلةٍ مُتمثِّلينَ بمَراجعِ الدِّينِ في وَقتِنا المُعاصِر.

وخلاصة ما تقدَّمَ: إنَّه من الطَّبيعيِّ حين يَتبنَّى الإنسانُ فكرةً او اتِّجاهًا مُعيَّنًا، كالحبِّ أو البُغضِ، ونحوِ ذلك، «يكونُ مَنشأُه أو مَصدرُه تلك الأفكارُ الخَفيّةُ والذِّكرياتُ الغامضةُ، أو المَبادئُ غيرُ المَعلومة، والتَّجاربُ الخَفيّةُ التي تُرغِمُنا وتُسيِّرُنا - من غيرِ أن نَشعُرَ بها- إلى اتِّخاذِ مواقفَ وإصدارِ أحكامٍ مُعيَّنةٍ»[٣].

فمثلاً هناك حالاتٌ من الكِبرِ والغُرورِ والعُجبِ، تَظهر في الإنسانِ من دونِ أنْ يَشعُرَ بها، ولا

١ - ابن أبي جمهور الأحسائي، عوالي اللآلي، ج٤، ص ١٠٢، محمد بن الحسن (الحر العاملي)، الجواهر السّنية، ص ١١٦.
٢ - جعفر عباس حاجي، فقه وفلسفة المناهجية التكاملية، ج٢، ص ٢٤١.
٣ - جميل صليبا، علم النفس، ص١٦٧.

يمُكنُه اكتشافُها إلا بعدَ حين، وبصِراعات طويلة الأمد، وربُمَّا لا يتخلَّصُ منها مُطلَقًا، ويُدافعُ عنها، ويَحسب أنَّه يُحسنُ صُنعًا، كما أشارت الآيةُ في قوله تعالى: ﴿**وَإِذا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قالُوا إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ**﴾ [البقرة: ١١-١٢].

وسببُ ذلك أنَّ في داخلِ وباطنِ لا شعورِ الإنسان رذائلَ وخبائثَ، أو قُوًى شَيطانيّةً مُتعدِّدةً، ترسَّخَت وتَنامَت، ثم اختفَت في باطنِه منذُ فترةٍ سابقة[١]، ولم يَنتبهْ إليها، وتَعامى عنها، فصارَت تلكَ الرَّذائلُ والذُّنوبُ - صغيرةً أو كبيرةً - بعدَ أن أهملَها الإنسانُ وأغمضَ بصيرتَه عنها، تمُثِّلُ لا شعورَه، وهي تَظهر لا إراديًّا، إمّا بصورةٍ تلقائيّة، أو عندَما يُصادفُ صَدمةً، أو واقعًا خارجيًّا يَتناغَمُ معَ ما في باطنِه، ويَنسجِمُ مع تلك القُوى الشَّيطانيّةِ أو الأفعالِ المَذمومةِ، التي امتلأتْ ذاتُه بها وهو لا يَعلم.[٢]

فنجدُ آيات القرآن تُؤكِّدُ على ذكرِ الله -تعالى- وتمَدحُ الذّاكرينَ: ﴿وَالذّاكرينَ اللهَ كَثيرًا وَالذّاكِرات أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وقوله -تعالى-: ﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيامًا وَقُعُودًا وَعَلى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلًا سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ**﴾ [البقرة: ١٩١].

وليسَ المرادُ بالذِّكرِ هنا اللَّفظيَّ فقط، وإنمَّا مراقبةُ النَّفسِ وإدراكُ أنَّ الله -تعالى- مُطَّلِعٌ على خفايانا كما هو مُطَّلِعٌ على ظاهرنا.

وكلُّ ما تقدَّمَ يتعلَّقُ بتَقويةِ العَقلِ باعتباره مصدرًا من مصادرِ مُعالجةِ الفتنةِ المَذمومةِ على وجهِ الخُصوصِ، والتعرُّفِ على الفِتنةِ المَحمودة التي يكونُ مَصدرُها اللهَ -تعالى- على نحوِ الاختبارِ للإنسان، فيُجازي المُحسنَ على إحسانه ويُثيبُه على قناعاته، ويُوظِّفُه لمَوارد الافتتان الحَسنِ، قال -تعالى-: ﴿**واعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾ [الأنفال: ٢٨]، فالعاقلُ الحَصيفُ هو الذي يُفيدُ من فِتنةِ الأولادِ في تَربيتِهم الصّالحةِ، كي يَكونوا عُنصرًا فَعّالًا يُسهِمُ في بناءِ المُجتمعِ الإنسانيِّ على وفقِ التَّعاليمِ الإسلاميّةِ والقرآنيّةِ.

---

١ - جعفر عباس حاجي، الأفكار والدوافع اللاشعورية وأثرها على تحريف الحقائق، ص١٩.
٢ - جعفر عباس حاجي، الأفكار والدوافع اللاشعورية... ص ١٩ (بتصرف).

ثانيًّا: المَباني العقليّةِ ودورُها في تَشخيص الفِتنَ العامّة

١ - المَباني العقليّة:

تُشيرُ المَباني العَقليّةُ إلى الأصولِ والقواعدِ التي انتزعَها العقلُ من خلال تَحليلِ الواقعِ المُحيطِ بالإنسانِ، تَحليلاً عقليًّا صِرفًا، دونَ الرُّجوعِ إلى مَرجعيّةٍ مَعرفيّةٍ أُخرى كالنَّقلِ والكشفِ.

ويَستندُ الإنسانُ إلى هذه المَباني في بناءِ مَنظومته الفكريّة، التي يَستندُ إليها في فَهمِ الظَّواهرِ والأحداثِ وتَفسيرِها، وتُعتبرُ هذه المَباني أساسًا مُهمًّا لتَطويرِ الفَهمِ، والتَّفكيرِ النَّقديِّ في جميعِ جوانبِ الحياة، ليَتمكّنَ من بناءِ حياتِه بناءً صَحيحًا، مُنسجمًا معَ النِّظامِ الوُجوديِّ التَّكوينيِّ، ويُمكِّنَ الإنسانَ أن يُسخِّرَ هذه القواعدَ في الكشفِ عن الأمورِ المُستقبليّةِ التي يمُكِنُ أن تَحدُثَ كالفِتنِ وغيرِها.

فعَن (كميلِ بنِ زياد) عن (أميرِ المؤُمنينَ) عليه السلام، أنَّه قال في وصيّته له: «يا كميلُ ما مِن حركةٍ إلّا وأنتَ مُحتاجٌ فيها إلى مَعرفة»[١]، لأنَّ العاملَ على غيرِ مَعرفة لا يَعرفُ هذا الفعلَ إنْ كانَ فيه مَصلحةٌ أو مَفسدةٌ. ولأنَّ العقلَ يَحتلُّ مكانةً خاصّةً ومُميّزةً في القرآن الكريم والسُّنة الشَّريفة، فقد وردَ عن (الإمامِ الكاظم) عليه السلام أنّه خاطبَ (هشامًا) قائلاً: «يا هشامُ إنَّ للهِ حجّتَينِ، حجّةٌ ظاهرةٌ، وحجّةٌ باطنةٌ، فأمّا الظّاهرةُ فهي الرُّسلُ والأنبياءُ والأئمّةُ، وأمّا الباطنةُ فالعُقول»[٢].

إذْ إنَّ العقلَ هو أحَدُ أدلّة الاستنباط لَدى المُسلمينَ، ونَقصدُ به هنا: كونَه أحدَ الأدلّة الكاشفةِ عن الحكمِ الشَّرعيِّ، وهو: «كُلُّ حُكم عَقليٍّ يُنهي إلى القَطعِ بالحُكم الشَّرعيّ»[٣]، أي: إدراكُ العَقلِ للأحكامِ الشَّرعيّةِ من غيرِ طريقِ النَّقل. أو هو: «كلُّ قضيّةٍ يُدركُها العقلُ ويُمكِنُ أن يَستنبطَ منها حُكمًا شرعيًّا»[٤]، وهذا مثلَما لو أدركَ الإنسانُ أنَّ هذا الفعلَ واجبٌ عليه، وهذا الفعلَ لا يمُكِنُ

١ - الحسن بن علي، (ابن شعبة البحراني)، تحف العقول، ص١٧١. وحسين بن محمد النوري، مستدرك وسائل الشيعة، ج ١٧، ص ٢٦٧.

٢ - محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، ج١، ص ٦٢٥.

٣ - عبد الهادي الفضلي، مبادئ أصول الفقه، ص ٨٨.

٤ - محمد باقر الصدر، دروس في علم الأصول، الحلقة الثانية، ص ١٩٥.

تحقُّقُه خارجًا إلاّ بالإتيانِ بمُقدِّمتِه، فيُدرِكُ بالبَداهةِ استلزامَ تحقيقِ هذا الفِعلِ، للإتيانِ بمُقدِّمتِه التي تَوقَّفَ عليها[1].

فمَثلًا: لو أمرَ صاحبُ المَزرعةِ عمّالَها بحَرثِها، وهم يُدركونَ أنَّ الحَرثَ يتطلَّبُ استعمالَ آلاتِه، فسوفَ يُحضِرونَها ويَستعملونَها، ولو لم يَأمُرْهُم صاحبُ المَزرعةِ بذلك. ومثلَما: لو حكمَ الشّارعُ المُقدَّسُ بوجوبِ امتثالِ شيءٍ من الأشياءِ بآيةٍ قرآنيّةٍ أو حَديثٍ مُعتبرٍ، وكان امتثالُ ذلك الشَّيءِ مُتوقِّفًا على مُقدِّمةٍ مُعيَّنةٍ لا يَتحقَّقُ إلاّ بتَحقُّقِها، ولم يَرِدْ نصٌّ من الشّارعِ المُقدَّسِ يَحكم بوُجوبِها، فإنَّ العقلَ يَحكم بالمُلازمةِ بينَ وجوبِ الشَّيءِ شرعًا، ووجوبِ مُقدِّمته حُكمًا يُفضي بطبيعتِه إلى القطعِ بحُكمِ الشّارعِ بوجوبِ المُقدِّمةِ، فالعقلُ هو القوّةُ الذِّهنيّةُ التي تُدرِكُ الاستلزامَ والمُلازَمةَ وبالبَداهةِ والرّأي من دونِ إعمالِ الفِكر.

ومُجمَلُ القَولِ: إنَّ الذي يَصلح أن يكونَ مُرادًا منه، مُقابلَ الكتابِ والسُّنةِ هو: كُلُّ قضيةٍ عقليةٍ يُتوَصَّلُ بها إلى العلمِ القَطعيّ بالحُكمِ الشَّرعيّ[2]. وقد ذُكر في حجيّةِ الدَّليلِ العَقليِّ أنَّ جمهورَ العامّةِ قد بنَوا على حجيّتِه[3]، وقد ذهبَ المشهورُ من الإماميّةِ إلى حجيّتِه، وذهبَ الإخباريُّونَ إلى عدمِ حجيّتِه[4].

إنَّ حجيّةَ العقلِ في واقعِها من الأمورِ البَديهيّةِ التي لا تَفتقرُ إلى بُرهان؛ لأنَّ العقلَ هو الدَّليلُ الأساس للعَقيدةِ الإسلاميّةِ، التي منها يَنبثِقُ التَّشريعُ الإسلاميُّ. فمن اعتبارِه دَليلًا رئيسًا للعَقيدة نَستطيعُ أن نُدرِكَ بسُهولةٍ وبَداهةٍ حجّيَةَ اعتبارِه دَليلًا للتَّشريعِ؛ وذلك لأنَّ العَقيدةَ أهمُّ من التَّشريعِ؛ لأنَّها أصلُ الدِّين.

وإنَّ دليلَ العقلِ هو الذي يُفضي إلى القَطعِ بحُكمِ الشَّرعِ؛ وذلكَ لأنَّ القَطعَ حجّةٌ بالبَداهةِ، كما هو معلومٌ لدى علماءِ الأصولِ والشَّرعِ[5].

١ – عبد الهادي الفضلي، دروس في أصول فقه الإمامية، ج٢، ٤٣٠.

٢ – يوسف بن أحمد البحراني، الحدائق الناضرة، يوسف البحراني، ج١، ص. ص ٤٠-٤١، وجواد أحمد البهادلي، مختصر المفتاح في أصول الفقه المقارن، ص ٢٦٢.

٣ – محمود الهاشمي الشاهرودي، بحوث في علم الأصول: تقريرات لبحث السيد محمد باقر الصدر، ج٤، ص ١١٩.

٤ – محمود الهاشمي الشاهرودي، بحوث في علم الأصول، ص ١١٩.

٥ – عبد الهادي الفضلي، مبادئ أصول الفقه، ص ٨٩. ويرى الشيخ الأنصاري في فرائد الأصول: «إن كون القطع حجة غير معقول، لأن الحجة ما يوجب القطع بالمطلوب، فلا يطلق على نفس القطع».

٢ - أقسام المَباني العقليّة:

تَنقسِمُ أحكامُ العقلِ إلى قسمَينِ هما: المُستقِلّاتُ العَقليّةُ، وغيرُ المُستقلّاتِ العَقليّةِ.

١. المُستقلّاتُ العَقليّةُ: وهي ما كانَت مُقدَّمةً للقياسِ الاستدلاليِّ أو: «هي الأحكامُ العَقليّةُ المَحضةُ، كالحُكم بأنَّ الكُلَّ أعظمُ من الجُزءِ، وأنَّ الواحدَ نصفُ الاثنَينِ، وكالحُكمِ ببُطلانِ الدَّورِ والتَّسلسُلِ واجتماعِ النَّقيضَينِ»[1]. وكحُكمِ العَقلِ بحُسنِ شيءٍ، ثم حُكمه بأنَّ كلَّ ما حَكم بهِ العقلُ حَكَمَ به الشَّرعُ.. مثل قولنا: العدلُ حسنٌ بحُكمِ العَقلِ. وكلُّ ما هو حسنٌ بحُكمِ العَقلِ حسنٌ بحُكمِ الشَّرعِ. فالعَدلُ حسنٌ بحُكمِ الشَّرعِ.

٢. المُستقلّاتُ غيرُ العَقليّةِ وهي: «التي يَعتمدُ الإدراكُ فيها على بيانٍ من الشّارع»[2]، وهي ما كانَت إحدى مُقدِّمتَي القياسِ الاستدلاليِّ فيها غيرَ عقليّةٍ والأُخرى عقليّة. كحُكمِ العَقلِ بوجوبِ المُقدِّمةِ لحُكمِ الشَّرعِ بوجوبِ ذي المُقدِّمة، مثل قولنا: قطعُ المَسافةِ إلى مكّةَ مُقدِّمةٌ لأداءِ الواجبِ الشَّرعيّ (الحجّ)، وكُلُّ مُقدِّمةٍ لأداءِ الواجب الشَّرعيِّ واجبةٌ بحُكمِ العَقلِ. فقطعُ المَسافةِ إلى مكّةَ واجبٌ بحُكمِ العَقل. ثم نقولُ: قطعُ المسافةِ واجبٌ بحُكمِ العَقلِ. وكُلُّ ما هو واجبٌ بحُكمِ العَقلِ هو واجبٌ بحُكمِ الشَّرعِ. فقطعُ المَسافةِ إلى مكّةَ واجبٌ بحُكمِ الشَّرعِ. أو كإدراكِنا نَهيَ الشّارعِ المُقدَّسِ عن الضدِّ العامِّ بعدَ اطِّلاعِنا على إيجابِ ضدِّه.[3]

المُلاحَظُ في المثالَينِ المُتقدِّمَينِ، أنَّ النَّتيجةَ مُتوقِّفةٌ على وجودِ المُلازَمةِ بينَ حُكمِ العَقلِ وحُكمِ الشَّرعِ، وهي في المثالِ الأوَّلِ: كلُّ ما هو حَسنٌ بحُكمِ العَقلِ حَسنٌ بحُكمِ الشَّرعِ، وفي المثالِ الثّاني: كلُّ ما هو واجبٌ بحُكمِ العَقلِ واجبٌ بحُكمِ الشَّرعِ. ونَعني بهذه المُلازَمة بينَ الحُكمِ الثّابتِ شرعًا أو عقلًا، وبينَ حُكمٍ شرعيٍّ آخَرَ، كحُكمِه - يَعني العقلَ - بالمُلازمةِ في مسألةِ الإجزاءِ ومُقدِّمةِ الواجبِ ونَحوِهما.

١ - حسن الموسوي البجنوردي، منتهى الأصول، ج١ ص ٢٧٥.
٢ - محمد تقي الحكيم، الأصول العامة للفقه المقارن، ص٢٦٧.
٣ - محمد تقي الحكيم، الأصول العامة للفقه المقارن، ص ٢٦٧.

فإنَّ هذه المُلازمات وأمثالَها أمورٌ حَقيقيّةٌ واقعيّةٌ، يُدركُها العقلُ النَّظريُّ بالبَداهة أو بالكسب؛ لكونها من الأوَّليّاتِ والفِطريّاتِ التي قياساتُها معَها، أو لكونها تَنتهي إليها، فيَعلم بها العقلُ على سبيلِ الجَزم.

ثالثًا: نماذجُ تطبيقيّةٌ للتَّحليلِ العَقليّ للفِتَنِ النَّوعيّةِ في القرآن الكريم

بعدَما أثبَتْنا حجيّةَ العقلِ ودورَه في التَّشريعِ، وبيَّنا قدرةَ العقلِ على كيفيّةِ التَّحليلِ والتَّمييزِ للفِتَنِ النَّوعيّةِ وغيرِها من الأمورِ، التي تَحتاجُ إلى معرفةِ حسبَ تحليلِ العقلِ، والتّأكيدِ على ضرورةِ استعمالِه، وذلك يدلُّ على القيمةِ الكبيرةِ لهذهِ الأداةِ التي منحَها اللهُ تعالى للإنسانِ؛ ليُميِّزَه عن باقي المخلوقاتِ، ويتعرَّف بها على مَعالِمِ هذا العالَم.

وقد أشارَ القرآنُ الكريم إلى استعمال العقلِ، وحثَّ الإنسانَ على التفكُّرِ والتدبُّر، حتى يتعرَّفَ على قدراته الذّاتيّةِ التي يَستطيع بواسطتِها الوصولَ إلى حقيقةِ الأمور، لذا علينا الرُّجوعُ إلى هذه النِّعمةِ التي أنعمَ اللهُ تعالى بها عَلينا، حتى نَستطيعَ أن نُميِّزَ بينَ الحقِّ والباطلِ، ونتحقَّقَ من الشُّبهاتِ الواردةِ حتّى لا نَقع في مَصيدةِ الشَّيطان، فمِن هذا المُنطلَقِ نَستطيعُ أن نأتيَ بنَماذجَ تَطبيقيّةٍ لإثباتِ حجيّةِ العقلِ ودورِه في التَّحليلِ للفِتَنِ النَّوعيّة.

وتَجدر الإشارةُ هنا إلى أنَّ الفِتنةَ تَنقسمُ على قِسمَينِ:

١ - الفِتنة الدِّينيّة:

وهي ابتلاءٌ من الله للمسلمِ خاصّةً دونَ الكافرِ، فيَختبرُه بحُلول المُصيبةِ عليه من تلقاءِ نفسه أو عن طريق العدوِّ، إنْ كانَ المسلمُ بقوله أو فعله مُوقنًا، فيَزيدُه إيمانًا وشرَفًا. قال -عزّ وجلّ-: ﴿**أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ**﴾ [التوبة: ١٢٦]. يقول (الشَّيخُ الطُّوسي) (ت٤٦٠هـ) في تفسير الآيةِ المُتقدِّمة: «عُنيَ بذلكَ الأمراضُ والأسقامُ التي شدَّدَ اللهُ بها التعبُّدَ على عِبادِه، فسَمَّى ذلكَ فتنةً من حيثُ يُشدِّدُ الصَّبرَ عليها»[1].

١ - محمد بن الحسن الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ج٤ ص٥٥٥.

وعمومُ الآيةِ يَسمحُ بدُخولِ غيرِ ما ذكرَه (العلاّمةُ الطُّوسيُّ) قُدِّسَ سِرُّهُ، فالصَّبرُ على طاعةِ الله واحدةٌ من الأمورِ التي يُفتنُ بها الإنسانُ ولازمُه الصَّبرُ عليها، وفَقدُ الأحبّةِ أيضًا يَلزم الإنسانَ الصَّبرُ عليهِ وعدمُ الجَزعِ، وضنكُ العَيشِ وعدمُ إمكانِ توفيرِ لُقمة للعيالِ من الأمورِ الصَّعبةِ جدًّا على الآباءِ ويَلزمُها الصَّبرُ أيضًا. والخلاصةُ أنَّ الفِتنَ كثيرةٌ لا يُمكِنُ حدُّها بالأمراضِ والأسقامِ فحسب.

ومثلُه قولُه -تعالى-: ﴿**الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ**﴾ [العنكبوت: ١-٣]. فالفتنةُ هنا: المُرادُ منها الاختبارُ أو الابتلاءُ، فمَن صبرَ على ذلك كان بمَفازةٍ من النّارِ، والعكسُ صَحيح.

فالإنسانُ هنا موجودٌ مختارٌ لأفعالِه وبيدِه الاختيارُ؛ للفَوزِ والنَّجاحِ في الامتحانِ أو الخُسرانِ والفَشلِ، وما سوفَ يَختارُه يقعُ عليه عاقبتُه، إنْ خيراً فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ، قال -تعالى-: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا* وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا**﴾ [الشمس: ٩-١٠]، وقال -سبحانه- في مَدحِ الصّابرِ على الابتلاء: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ**﴾ [البقرة:١٥٥]، وهذه الآيةُ تُؤكِّدُ ما قدَّمناهُ من أنَّ الفِتنَ لا تنحصِرُ في الأمراضِ والأسقامِ. فتأمَّلْ!

ويعضد ذلك ما جاء في السُّنةِ المُطهَّرةِ عن (صُهيب)، قال: قال (رسولُ الله) صلى الله عليه وآله وسلم: «عَجبًا لأمرِ المُؤمنِ، إنَّ أمرَه كلَّه لَه خَيرٌ، وليس ذلك لأحدٍ إلاّ للمؤمنِ؛ إنْ أصابَتْه سَرّاءُ شكرَ، فكانَ خيراً له، وإنْ أصابَتْه ضَرّاءُ صَبرَ، فكانَ خيراً لَه»[1].

٢ - الفِتنةُ الدُّنيويّة:

وهي ابتلاءٌ يَحلُّ على الخلقِ، إمّا في أنفسِهم، أو أهليهم، أو أموالِهم، أو بُلدانِهم؛ كالخَسفِ، أو الفَيضانات، أو الطّاعون، أو الحروبِ، أو الجنون. ولَعلَّ الآيةَ التي ذكرناها سابقًا من سورة البَقرة مصداقٌ للفتنِ الدُّنيويّة، قال -تعالى-: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ**﴾ [البقرة: ١٥٥].

١ - مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، باب النهي عن المدح، ج ٨، ص ٢٢٧.

وفي آيةٍ أُخرى، من آياتِ الذِّكرِ الحَكيم، يمُكنُ أن نَستلهمَ منها دورَ العقلِ وخطورةَ تَغييبه، يقول -تعالى-: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف:١٩٧].

فما فائدةُ القلوبِ (العقول)، إذا لم تكنْ تَعقلُ الأشياءَ، وتمُيِّزُ الغثَّ من السَّمين؟ وما فائدةُ الأبصارِ إذا لم تكنْ على نحوِ رُؤيةِ البَصيرة، لا رُؤيةِ النَّظرِ الظّاهريِّ؟ وما فائدةُ وجودِ السَّمعِ ظاهرًا، والإنسانُ لا يَسمع النَّصيحةَ، ولا يَسمعُ نِداءَ اللهِ -سبحانَه- في ضرورةِ توَحيدِه، وعدمِ الإشراكِ به، والتحلّي بالفَضائلِ والتخلّي عن الرَّذائل؟

يتجلَّى لنا ذلك، إذا نظرْنا إلى حالِ النّاسِ اليومَ في بقاعِ الأرضِ المُختلفة، إذ نَرى منهم حتى الآنَ مَنْ يَعتنقُ أديانًا ضروريّةَ البطلانِ ظاهرةَ البَشاعة، كعبادةِ الأوثان، ونسبةِ الإدراكِ والحَولِ والقوّة لَها، معَ أنَّها جماداتٌ حادثةٌ مَصنوعةٌ قطعًا، وتَرى هؤلاءِ يتمسَّكونَ بعَقائدِهم ويَجرونَ عليها، ويُدافعونَ عنها، ويتعصَّبونَ لها، غافلينَ أو مُتغافلينَ عن واقِعها المزْري الشَّنيع.

ومن الفِتنِ أيضًا مُصيبةٌ تقعُ فيما بينَ الخلق، قد تكونُ عن طريقِ القَتل، أو السِّحر، أو المرضِ، أو الغَصبِ، أو الحريقِ، أو النِّزاعِ واشتعالِ نيرانِ الحربِ بين شَخصينِ، أو بينَ الأهلِ أو الدُّول.

فالفتنُ التي تقعَ بينَ النّاسِ كثيرةٌ، منها الخُصوماتُ، أو الاعتداءُ والظُّلمُ، قال -تعالى-: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام:٥٣]. وفي خطبةٍ لـ(أميرِ المؤمنينَ) عليه السلام أنَّه قال: «إنّي سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم يقولُ: كيفَ أنتُم إذا لَبستُم فِتنةً يَربو فيها الصَّغيرُ، ويَهرمُ فيها الكبيرُ، يَجري النّاسُ عليها ويتَّخذونَها سُنّةً؟ فإذا غُيِّرَ منها شيءٌ قيلَ: قد غُيِّرَت السُّنةُ، وقد أتى النّاسُ مُنكرًا، ثم تشتدُّ البَليّةُ وتُسبَى الذُّريّةُ، وتَدقُّهُم الفِتنةُ كما تَدقُّ النّارُ الحطبَ، وكما تَدقُّ الرَّحى بثِفالِها»[1].

ولعلَّ من أكبرِ الفِتنِ وأخطرِها فتنةَ الابتعادِ عن عقيدةِ التَّوحيد: أي إنكار وحدانيّةِ الله،

١ - محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، ج٨ ص ٥٩، حديث: ٢١.

أو الشِّرك بالله، فهذه الفتنةُ من أشدِّ أنواعِ الفتنِ؛ قال -تعالى-: ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [آل عمران: ١٨]، وقال سبحانه: ﴿**يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**﴾ [يوسف: ٣٩].

فلا بدَّ للعقلِ هنا أن يُدرِكَ فِطريًّا - ومن خلال المُستقلّاتِ العَقليّة - ضرورةَ وحدانيّة الخالق، ولا سيَّما حينَ يَقرأُ الدَّليلَ العَقليَّ في القرآنِ الكريمِ في قوله -تعالى-: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾ [الأنبياء:٢٢]، فالأمرُ هنا لا يتعلَّقُ بالمؤمنينَ، بل بكلِّ ذي عقلٍ حَصيفٍ يَحترِمُ عقلَه.

ومن هنا نعرفُ سببَ عدمِ جَوازِ التَّقليدِ في أصول الدِّينِ، التي هي: التَّوحيد، العَدل، المَعاد، النبوّة، الإمامة.

ومن الفِتنَ التي ابتُليت بها الأمّةُ اليومَ فتنةُ الاعتداءِ على النّاسِ وإزهاقِ أرواحِهم، فيما سُمِّي بالإرهاب، والفِتنِ المَذهبيّةِ والطّائفيّةِ؛ حيثُ يتمُّ قتلُ الإنسان بسببِ الاختلافِ في الدِّينِ أو المذهبِ، وقد وقعَت جرائمُ يَندى لها جبينُ الإنسانيّةِ، شوَّهَت الإسلامَ، وتسبَّبَت في إيذاءِ المسلمينَ وتَرويعهم ونهبِ أموالِهم وإتلافِها، وهذا ما لا يَرضاهُ الإسلامُ، قال -تعالى- ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا**﴾ [الأحزاب:٥٨].

وقد جاء عن (الطبرسيِّ) في تفسير قوله -تعالى-: ﴿**وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا**﴾ [النساء:٥٣]: «أي قاصدًا إلى قتلِه، عالماً بإيمانه، وحُرمةِ قَتله، وعِصمةِ دَمه. وقيل: مَعناهُ مُستحِلاًّ لقَتلِه، عن عكرمة، وابن جريج، وجماعة. وقيل: معنى التعمُّدِ أن يَقتلَه على دينِه..»[1].

فالعقلُ هنا لا بدَّ أن يأخذَ دورَه، ولا بدَّ للعُقلاءِ من تَفعيلِ هذا الدَّورِ والوقوفِ بحَزمٍ إزاءَ مثلِ هذه

١ - الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ٣ ص ١٩٥.

الفِتنَ، وهو الأمر الذي تحصَّلَ لَديهم من خلال استنكار هذا الأمرِ ونَعتِ أُولئكَ القَتلةِ بالظّالمينَ، وما مأوى الظّالمِ إلاّ نارُ جهنَّمَ كما نصَّت الآيةُ المبُاركة آنِفًا.

ومن الفِتنِ النَّوعيّةِ أيضًا، التي أشار إليها الشَّرعُ في القرآن الحَكيم، وشخَّصَها العقلُ الحَصيفُ: فتنةُ المال، وتكون في جميع ما يمَلِكُه الإنسانُ من الأموال، سواءٌ من الذَّهب، أو الفضّة، أو الحَرث، أو البهائم؛ يقول الله -تعالى-: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧]، وفتنةُ الوَلد: إذ قد يُبتلى المرءُ في وَلدِه، قال -تعالى-: ﴿**إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾ [التغابن:١٥].

ولعلَّ أهمَّ ما ابتُلينا به في الوقت الحاضر، كما ابتُلي به الأقوامُ من قَبلِنا: فتنةُ التعصُّبِ القوميّ، تلكَ التي تكونُ بينَ قبيلتَينِ، أو قريتَينِ، أو دَولتَينِ، وقد حدثَتْ حروبٌ داميةٌ بين الأَوْس والخَزْرج في الجاهليّة، استمرَّت قرابةَ مائة وأربعينَ سنةً، ولم تَنته إلاّ بعدَ بُزوغِ نورِ الإسلامِ وهِجرةِ النبيِّ ﷺ إلى يَثرب، فشرَحَ اللهُ صدورَهُم للإسلامِ، وهَداهُم إليه، وألَّفَ به بينَ قلوبِهم، بعدَ أن كانوا أعداءً.

وقد مَنَّ الله عليهم بهذا التأليف بينَ قلوبهم؛ فقال: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾ [آل عمران: ١٠٣]، والعقلُ يَحكم بأنَّ هذا الخطابَ لم يكنْ خاصًّا بأهلِ يَثرب فقط، بل هو جارٍ في حُكمه إلى وقتنا الحاضر، فلا بدَّ أن نَستلهمَ العِبرَ بعدَمِ جواز الاقتتالِ بينَ الإنسانِ وأخيهِ الاّ لضرورة الدِّفاعِ المَشروعِ. أمّا الاختلافُ المَذهبيُّ فلا يُبرِّرُ الاقتتالَ والحروبَ الدَّمويّةَ بينَ المسلمينَ. بل يَصبُّ في مصلحة المُستعمرينَ وأعداء الأمّة، وقد حذَّرَ القرآنُ الكريم من ذلك أشدَّ التّحذير قائلاً: ﴿**وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ [الأنفال:٤٦].

الخاتمة

لا يَصحُّ لأيِّ باحث عن المعرفة أن يدَّعي أنَّه توصَّلَ إلى نتائجَ نهائيَّةٍ من بحثِه، وأنَّ جميعَها تتَّصِفُ بالصِّحة، فذلكَ أمرٌ لا يتحصَّلُ إلّا لِمَنْ عصمَه اللهُ تعالى، وعليه فإنَّ هذه النَّتائجَ، التي سوف أُدرجُها، إنمَّا تمُثِّلُ ثمرات اقتطفتُها من شجرةِ المَعرفةِ، وفيها الغَثُّ والسَّمين، فإنْ وُفِّقتُ في اجتناءِ السَّمينِ منها واليانعِ النّافعِ، فبفضلِ توفيقه لي سبحانه وتعالى، وإن انحصرَ قِطافي على الغَثِّ فقط، فتلك من آثار ذُنوبي التي أثقلَت ظَهري ومَنعتْني النَّظرَ فيما هو نافعٌ للباحثينَ وطُلّابِ الحقيقةِ، وأنا أعوذُ بالله الرَّؤوفِ الرَّحيمِ من غضبِه وأسألُه المَغفرةَ، وهذه بعضُ قطوفي الدّانية:

إنَّ القرآنَ الكريمَ ركَّزَ في كثير من آياته المُباركاتِ على أهميّةِ العَقلِ، وكان الخطابُ فيها مُوجَّهٌ إلى العقلِ والعُقلاءِ، وتلكَ إشارةٌ مُهمّة إلى إمكانيّةِ تَغييرِ القَناعاتِ عن طريقِ تكرارِ مُخاطبةِ العُقولِ وتَحكيمِها في صالحِ الأمورِ، وذلك بما أودعَه -سبحانَه- فيه من الإمكاناتِ والقابليّاتِ في الانتقالِ من القُبحِ إلى الحَسَنِ من الأمور.

١. إنَّ للعقلِ دورًا محوريًّا في تَشخيصِ الفِتنَ والتَّمييز بينَ الحقِّ والباطلِ، إذ يُعدُّ أداةَ الإنسانِ الأساسيّةَ للإدراكِ، من خلالَ تَحليلِ الفردِ للأحداثِ والمَواقفِ، وتقويم المَعلوماتِ، واتِّخاذِ القراراتِ الصّائبةِ، التي تُجنِّبُه الوقوعَ في الفِتنَ.

٢. إنَّ للعقلِ الأثرَ البالغَ في تغيير قناعاتِ الإنسانِ الخاطئةِ وإعادتِه إلى جادّةِ الصَّوابِ والحِكمة.

٣. إنَّ للعقلِ الدَّورَ البارزَ في تشخيصِ الفتنِ النَّوعيّةِ في كلِّ مُستوياتِها الفرديّةِ والجَمعية، الاجتماعيّةِ، والاقتصاديّةِ، والسِّياسيةِ والنَّفسيّةِ.. ونحوها.

٤. إنَّ العقلَ يُسهم في معالجةِ الفِتنَ وتَوجيه الإنسان إلى الصَّواب، ويَضمنُ له الفوزَ والنَّجاةَ في الدّارَين، وبعكسِ ذلك وردَ الذمُّ في الشَّرعِ المُقدَّسِ للذينَ يُغيِّبونَ العقلَ ولا يُعملونَه في فَهمِ ما يَدورُ حولَهم فيما يتعلَّقُ بالإنسانِ والكونِ، والإنسانِ وربِّ الكونِ، والإنسانِ وأخيهِ الإنسانِ.

٥. إنَّ فهمَ النُّصوصِ الشَّرعيّةِ فهمًا صَحيحًا، من خلالِ إعمالِ العقلِ، من شأنِه أن يُجنِّبَ الإنسانَ التَّنطُّعَ في الدِّينِ، وإصدارَ الفتاوى المُغرِضةِ والمُفرِّقةِ بينَ أبناءِ المجتمعِ الواحدِ، والمؤدِّيةِ إلى التَّهاونِ في أحكامِ الشَّريعةِ السَّمحاء.

٦. إنَّ الفكرَ الإسلاميَّ حذَّرَ من انتشارِ الخرافاتِ التي تُكبِّلُ دورَ العَقلِ في إدارةِ الحياةِ، مثل السِّحر والشَّعوذة، وهي بدَورِها تُؤدِّي إلى الانحرافِ العَقديِّ لدى المكلَّفينَ والوقوعِ في الفِتنِ.

٧. إنَّ تنميةَ التَّفكيرِ النَّقديِّ والاعتمادِ على العقلِ في فهمِ الأمورِ الحياتيّةِ هو من الوسائلِ المهُمّةِ في مُحاربةِ دَسائسِ المادِّيينَ والمُلحدينَ.

٨. يَدعو الباحثُ الأمّةَ إلى تَحكيمِ العقلِ في كلِّ شيءٍ، والعودةِ إليه، واتِّباعِ الحِكمةِ الصّادرةِ عنه، إذ في ذلك حياةٌ لها، وعكسُه الموتُ في الدُّنيا والخسرانُ في الآخرة..

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- الإمام علي بن أبي طالب، نهج البلاغة، شرح محمد عبده، دار المعرفة - بيروت، الطبعة الأولى (د. ت).
- جعفر السبحاني، مفاهيم القرآن، الناشر: مؤسسة التاريخ العربي - بيروت، ط ١-١٤٣١هـ / ٢٠١٠م.
- جعفر عباس حاجي، الأفكار والدوافع اللاشعورية وأثرها على تحريف الحقائق، الناشر: دار المحجة البيضاء - بيروت، ط- ١٤٣٤هـ / ٢٠١٢م.
- جعفر عباس حاجي، فقه وفلسفة المنهاجية التكاملية التوحيدية من منظور إسلامي، الناشر: دار المحجة البيضاء- بيروت، ط١- ١٤٣٤هـ / ٢٠١٢ م.
- جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزي، الأذكياء، الناشر: مكتبة الغزالي، ط١- ١٤٤٢هـ / ١٩٨٥م.
- جميل صيبا، علم النفس، الناشر: دار الكتاب اللبناني، ط ٢ - ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
- حسن بن علي البجنوردي، منتهى الأصول إلى علم الأصول، مطبعة النجف- العراق، ط-١٩٦٠م.
- الحسن بن علي البحراني، تحف العقول عن آل الرسول، تحقيق: علي أكبر غفاري، الناشر: مكتبة دار الكتب الإسلامية- طهران، ط١- ١٣٧٦هـ/١٩٧٥م.
- حسين النوري الطبرسي، مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت (ع) لإحياء التراث، ط- ١٤٠٨هـ.
- حميدة الأعرجي، فقه الأخلاق في الشرائع السماوية، الناشر: دار أمجد للنشر والتوزيع، عمَّان - الأردن، ط١- ١٤٤٠هـ / ٢٠١٩م.
- الصدوق محمد بن علي بن بابويه (الصدوق)، الخصال، تحقيق: علي أكبر غفاري، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قُم – إيران (د. ت).

- عبد الهادي الفضلي، مبادئ أصول الفقه، الناشر: مركز الدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط- ٢٠٠٧م.
- عمر بن محمد النسفي، العقائد النسفية، الناشر: دار الكتاب اللبناني، ط ٢ - ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
- الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق: لجنة من العلماء والمحققين، مؤسسة الأعلمي- بيروت، ط١- ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
- الفضلي عبد الهادي، دروس في أصول فقه الإمامية، تحقيق ونشر: مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر، ط١- ١٤٢٠هـ.
- محمد باقر الصدر، دروس في علم الأصول، الناشر: دار الكتاب اللبناني- بيروت، ط٢- ١٤٠٦هـ.
- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، الناشر: دار الوفاء - بيروت، ط٢- ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- محمد باقر المجلسي، مرآة العقول، طبع: إيران (د. ت).
- محمد بن الحسن (الحر العاملي)، الجواهر السنية في الأحاديث القدسية، منشورات مكتبة المفيد- قُم – إيران (د. ت).
- محمد بن الحسن الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، تحقيق: أحمد حبيب قصير، الناشر: مكتبة الإعلام الإسلامي، دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة الأولى (لا. ت).
- محمّد بن الحسن الطوسي، تهذيب الأحكام، دار الكتب الإسلامية - طهران، الطبعة الأولى، (د. ت).
- محمد بن عبد الله (ابن عربي)، التجليات الإلهية، الناشر: مركز نشر دانشگاهي – طهران، ط- ١٩٨٨م.
- محمد بن علي (ابن بابويه القمي)، من لا يحضره الفقيه، أشرف على تصحيحه والتعليق عليه: العلامة حسين الأعلمي، الناشر: منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط١- ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

- محمد بن علي الشوكاني، نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار، الناشر دار الجيل- بيروت، ط- ١٩٧٣م.
- محمد بن علي (ابن أبي جمهور الأحسائي)، عوالي اللآلي العزيزية في الأحاديث الدينية، تحقيق: السيد المرعشي ومجتبى العراقي، مطبعة سيد الشهداء- قُم- إيران، ط١- ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- محمد بن محمد (صادق الصدر)، ما وراء الفقه، الناشر: المحبين للطباعة والنشر، قُم- إيران، ط٣- ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٧م.
- محمد بن محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، الناشر: دار المعرفة – بيروت، ط- ١٩٨٢م.
- محمد بن مكرم (ابن منظور)، لسان العرب، مطبعة دار احياء التراث العربي، الناشر أدب الحوزة، ط١- ١٤٠٥هـ.
- محمد بن يعقوب (الكليني)، الكافي، تحقيق: علي أكبر غفاري، مطبعة الحيدري، دار الكتب الاسلامية قُم- إيران، ط٤- ١٣٦٥هـ.
- محمد تقي الحكيم، الأصول العامة للفقه المقارن، النجف الأشرف: العراق، ط٢- ١٩٧٩م.
- محمد تقي المدرسي، الفكر الإسلامي مواجهة حضارية، الناشر: دار المحجة البيضاء للطباعة والنشر - بيروت، ط ١- ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.
- محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، صحّحه وأشرف على طباعته: الشيخ حسين الأعلمي، الناشر: منشورات مؤسسة الأعلمي: بيروت - لبنان، ط١-١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- محمود الهاشمي الشاهرودي، بحوث في علم الأُصول، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، قُم - إيران، ط٢- ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، الناشر: دار الفكر – بيروت، (د. ت).
- ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ترجمة وتنقيح: محمد علي آذرشب، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين في الحوزة العلمية- قُم – إيران، ط- ١٤٠٩ه.

- يوسف بن أحمد البحراني، الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة، تحقيق: محمد تقي الأيرواني، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين - قُم - إيران، (د. ت).

البحوث:

- فاضل مدب المسعودي، الشعور واللاشعور الإنساني وعلاقته بالإعجاز القرآني، بحث منشور في مجلة الذكر، العدد الأول، كربلاء- ٢٠٢٢م.
- محمد تقي الكرمي، العقل في الفقه الشِّيعي..الماهية والوظائف (القسم الثَّاني)، ترجمة: كمال السَّيد، مجلة المنهاج، مركز الغدير للدراسات الاسلامية، العدد: (٢٨)، السنة السابعة- ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.